

المجال الثاني عشر الدعاء

ورد النهي في هذا المجال في سياق واحد سياق دعاء المؤمنين الله تعالى ألا:

١- يؤاخذهم حال الخطأ والنسيان، في قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ (٢٨٦).

جاء في معنى المؤاخذة: "وَأَخَذَهُ بِذَنْبِهِ مُؤَاخَذَةً: عاقبه^(١)"، أما الخطأ فهو: "العدول عن الجهة"^(٢)، وهو على أنواع: "أحدها: أن تريد غير ما تحسن إرادته فتفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال: خَطِئَ يَخْطِئُ، خَطَأً، وَخِطَاءً، قال تعالى: ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١)، وقال: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١).

والثاني: أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أَخْطَأَ إِخْطَاءً فهو مُخْطِئٌ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهذا المعنى بقوله عليه السلام: «رفع عن أمّتي الخطأ والنسيان»، وبقوله: «من اجتهد فأخطأ فله أجر»، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (النساء: ٩٢).

والثالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهذا مخطئ في الإرادة ومصيب في الفعل، فهو مذموم بقصده وغير محمود على فعله، وهذا المعنى هو الذي أراده في قوله: أردت مساءتي فاجتررت مسرتي وقد يحسن الإنسان من حيث لا يدري^(٣).

وورد في تعريفه أيضا: "الخطأ: هو ما ليس للإنسان فيه قصد، وهو عذر صالح لسقوط حق الله تعالى إذا حصل عن اجتهاد ويصير شبهة في العقوبة حتى لا يؤثم الخاطئ ولا يؤاخذ بحد ولا قصاص ولم يجعل عذرا في حق العباد حتى وجب عليه ضمان العدوان ووجبت به الدية كما إذا رمى شخصا ظنه صيدا أو حريبا فإذا هو مسلم أو غرضا فأصاب آدميا وما جرى مجراه كرائم ثم انقلب على رجل فقتله^(٤)".

والنسيان هو: "تَرْكُ الْإِنْسَانِ ضَبْطَ مَا اسْتَوْدَعَ، إِمَّا لَضَعْفِ قَلْبِهِ، وَإِمَّا عَنْ غَفْلَةٍ، وَإِمَّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِفَ عَنِ الْقَلْبِ ذِكْرُهُ، يقال: نَسِيْتُهِ نَسْيَانًا^(٥)"، وقيل: هو "زوال

(١) لسان العرب، ابن منظور (أخذ)، ٣ / ٤٧٠

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٢٨٧

(٣) نفسه، ١ / ٢٨٧

(٤) التعريفات، الجرجاني، ١ / ١٣٤

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٨٠٣

صورة المعلوم عن النفس بحيث لا تتمكن من ملاحظتها إلا بتجشم إدراك جديد^(١)، وقيل: "النسيان هو الغفلة عن معلوم في غير حالة السنة، فلا ينافي الوجوب؛ أي نفس الوجوب ولا وجوب الأداء^(٢)".

وقيل: "النسيان على وجهين: أحدهما: أنه قد يتعرض الإنسان للفعل الذي يقع معه النسيان فيحسن الاعتذار به إذا وقعت منه جناية على وجه السهو، والثاني: أن يكون النسيان بمعنى ترك المأمور به لشبهة تدخل عليه، أو سوء تأويل وإن لم يكن الفعل نفسه واقعا على وجه السهو فيحسن أن يسأل الله مغفرة الأفعال الواقعة على هذا الوجه. والنسيان بمعنى الترك مشهور في اللغة؛ قال الله تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ؛ يعني تركوا أمر الله تعالى فلم يستحقوا ثوابه^(٣)".

وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة سبب نزول هذه الآية الكريمة؛ حيث قال: "لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ، ثُمَّ قَالُوا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ كُلُّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالزَّكَاةَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ: أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ". قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا قَرَأَهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٥) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) قَالَ:

(١) دستور العلماء، عبد رب النبي نكري، ٣ / ٢٧٨

(٢) التعريفات، الجرجاني، ١ / ٣٠٩

(٣) أحكام القرآن، الجصاص، ٢ / ٢٧٨

نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قَالَ: نَعَمْ ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قَالَ: نَعَمْ^(١).

ولا شك أن المقام هنا - أعني مقام الدعاء والتضرع لله - من أشرف المقامات وأسمائها التي يمكن أن يقومها العبد مع ربه أو في عبادته لربه؛ فالدعاء هو العبادة بل مخها، "إذ الداعي يشاهد نفسه في مقام الحاجة والذلة والافتقار، ويشاهد ربه بعين الاستغناء والإفضال"^(٢).

وفي هذا النص الكريم "يجوز أن يكون هذا الدعاء محكياً من قول المؤمنين: الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥)، بأن اتبعوا القبول والرضا، فتوجهوا إلى طلب الجزاء ومناجاة الله تعالى. واختيار حكاية هذا عنهم في آخر السورة تكملة للإيدان بانتهائها. ويجوز أن يكون تلقينا من جانب الله تعالى إياهم: بأن يقولوا هذا الدعاء، مثل ما لقنوا التحميد في سورة الفاتحة فيكون التقدير. قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ إلى آخر السورة؛ إن الله بعد أن قرر لهم أنه لا يكلف نفساً إلى وسعها، لقنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع. والمراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلا ينسخ من جراء غضب الله كما غضب على الذين قال فيهم: ﴿فَظَلَمِ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠)^(٣).

وفيه دلالة بالغة على محبته لنا سبحانه، ورحمته بنا فقد "دعانا إلى أن ندعوه بهذا الدعاء، الذي صاغه سبحانه من كلماته، وجعله سبحة ملائكته ولعباده الصالحين، يستحون له، ويدعون لنا به، بل إنه سبحانه وتعالى يأتمننا بهذا الدعاء، ويصلي علينا به، ونحن نقول بما يقول، ونصلي بما يصلي.. فما أكثر رحمة الله بنا، وما أوسع فضله علينا؛ إذ تقبل دعاءنا قبل أن ندعو، واستجاب لنا قبل أن نكون! فقد رفع الله عنا الخطأ والنسيان، كما أخبر الرسول الكريم في قوله: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٤).

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ١ / ٥٠٧

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢ / ٧٦٣

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢ / ٦٠١

(٤) التفسير القرآني للقرآن، د. عبد الكريم الخطيب، ٢ / ٣٩١

و"قال السدي: لما نزلت هذه الآية فقالوها، أي ودعوا بها، قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: «قد فعل الله لهم ذلك يا محمد». فهذا دلالة على أن هذه الدعوات السبع مستجابة بحمد الله. وأول هذه الدعوات وثانيها: ربنا لا تؤاخذنا على النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود، إذ تركنا ما ينبغي فعله، أو فعلنا ما ينبغي تركه^(١)."

إن هذا الطلب النهي في ختام أكبر سورة في القرآن العظيم غرضه - وهذا من نافلة القول - الدعاء والتضرع والتوسل للخالق عز وجل، وهو "دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم وإدراكهم لضعفهم وعجزهم، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه، وإلى مدده وعونه وإصاق ظهورهم إلى ركنه، والتجائهم إلى كنفه، وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه... فدائرة الخطأ والنسيان هي التي تحكم تصرف المسلم حين يتتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه. وفي مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح. وليس هو التبرجح إذن بالخطيئة أو الإعراض ابتداء عن الأمر، أو التعالي عن الطاعة والتسليم أو الزيف عن عمد وقصد^(٢)."

٢- يحملهم قيودا كالتى كانت على من قبلهم من الأمم، في قوله تعالى: ﴿...رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا...﴾ (٢٨٦).
الحمل هنا تعني التكليف، جاء في ذلك: "(حملة) الشيء والأمر كلفه حمله... (تحامل) على فلان جار ولم يعدل وكلفه ما لا يطيق ويقال تحاملت على نفسي والشيء وفيه وبه تكلفه على مشقة وإعياء^(٣)".

أما الإصر فورد في تعريفه: "الأَصْرُ: عقد الشيء وحبسه بقمه، يقال: أَصْرْتُهُ فهو مَأْصُورٌ، والمَأْصَرُ والمَأْصَرُ: محبس السفينة. قال الله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) أي: الأمور التي تشبّطهم وتقيدهم عن الخيرات وعن الوصول إلى الثواب، وعلى ذلك: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقيل: ثقلا «٣». وتحقيقه ما ذكرت، والإصر: العهد المؤكّد الذي يثبّط ناقضه عن الثواب والخيرات، قال تعالى: ﴿أَقْرَضْتُمُ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ (آل عمران: ٨١)^(٤)."

(١) التفسير الوسيط، د. وهبة الزحيلي، ١ / ١٧٠

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٣٤٥

(٣) المعجم الوسيط، ١ / ١٩٩

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٧٨

وقيل: "الإصر: كل عقد وعهد فهو إصر {وأخذتم على ذلكم إصري}؛ أي عهدي، وقال الأزهري في قوله تعالى {ولا تحمل علينا إصرا}: أي عقوبة ذنب يشق علينا، {ويضع عنهم إصرهم}؛ أي ما عقد من عقد ثقیل عليهم مثل: قتل أنفسهم وما أشبه ذلك من قرص الجلد إذا أصابته نجاسة^(١)".

إن المؤمنين في هذا السياق المبارك يدعون ربهم الرحيم الذي خلقهم وعلى علم كامل بضعفهم وعجزهم - أقول يدعونه ألا يكلفهم من العهود والمواثيق والقيود ما لا يقدرّون على أدائه، فهم يريدون محبته وطاعته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه؛ لذلك يدعونه سبحانه أن يكلفهم بما يطاق من الأمور.

وورد في هذا السياق الكريم: "والمعنى في قوله: لا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا يريد به عهدا، وهو الأمر الذي يثقل. روى نحوه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وهو في معنى قوله تعالى: وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، يعني: من ضيق، وقوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ الآية، وقوله تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وقال النبي ﷺ: جئتكم بالحنيفية السمحة وروى عنه: أن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم^(٢)".

وقال صاحب اللطائف: "لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير، كل ذلك رفع منه وفضل... وكانت الأمم السالفة إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة، وفي هذه الأمة قال ﷺ: «الندم توبة»^(٣)".

وقد قيل في هذا السياق أيضا "قال الفضيل في قوله تعالى لا تحمل علينا إصرا الآية قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب الذنب قيل له: توبتك أن تقتل نفسك، فيقتل نفسه فوضعت الآصار عن هذه الأمة، وأخرج الطبري من طريق ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح في قوله كما حملته على الذين من قبلنا قال: لا تمسخنا قردة وخنازير، ومن طريق عبد الرحمن بن زيد قال: لا تلزمنّا ذنبا لا توبة فيه ولا كفارة^(٤)"، وقيل أيضا:

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١ / ١٧١

(٢) أحكام القرآن، الجصاص، ٢ / ٢٧٩

(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ١ / ٢١٦

(٤) العجّاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ١ / ٦٥٥

"الإصر هنا: الثقل العظيم من كلفة أمر أو وبال نهي. وسمي في الأصل العهد إصرًا، وكذلك الرحم؛ لأن القيام بحقهما ثقل عظيم^(١)".

٣- يحملهم ما لا يطيقون، في قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦٓ وَأَعْفُ عَنَّا وَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦).

الطاقة: "اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطَّوق المحيط بالشيء^(٢)"، وقيل: "الاستطاعة هي عرض يخلفه الله تعالى في الحيوان يفعل أو يفعل به الأفعال الاختيارية والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع والطاقة متقاربة في المعنى في اللغة و أما في عرف المتكلمين فهي عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك^(٣)".

وقيل: "الطاقة: من الطوق، وهو ما استقل به الفاعل ولم يعجزه^(٤)"، وقيل: "(طاقة) طوقا وطاقة: قدر عليه... (الطاقة) القدرة وما يستطيع الإنسان أن يفعله بمشقة^(٥)".

وقد ورد في تفسير هذا النص الكريم: "وإني لأحب أن أفهم قوله تعالى: «رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ». على أنه -مع كونه دعاء مطلقا يدعو به المسلم في كل وقت- هو تعويذة يلوذ بها المذنبون الذي تغلبهم أنفسهم، وتقهرهم أهواؤهم فيقتربون ما اقترفوا وهم في هذا الضعف النفسي المستولى عليهم، فهم. والحال كذلك. قد وجدوا أمام أمر لا طاقة لهم به، وهم لذلك في استخزاء، وفي حسرة وندم، لا يجدون إلا وجه الله يسطون أيديهم إليه أن يعينهم على أنفسهم، فيقوَّى من إيمانهم، ويشد من عزائمهم، في هذا الصراع الدائر في كيانه، بين الإقدام على المعصية والإحجام عن مواقعتها، حتى ينتصروا على أنفسهم ويتنهوا عما نهوا عنه^(٦)".

(١) باهر البرهان، بيان الحق، ١ / ٢٧٣

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٥٣٢

(٣) التعريفات، الجرجاني، ١ / ٣٥

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١ / ٤٧٧

(٥) المعجم الوسيط، ٢ / ٥٧١

(٦) التفسير القرآني للقرآن، د. عبد الكريم الخطيب، ٢ / ٣٩٢

إن هذا الدعاء "دعاء يشي بحقيقة الاستسلام. فالمؤمنون لا ينون نكولا عن تكليف الله أيا كان. ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون. كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه.. وإلا فهي الطاعة المطلقة والتسليم.. إنه طمع الصغير في رحمة الكبير. ورجاء العبد الضعيف في سماحة المالك المتصرف. وطلب ما هو من شأن الله في معاملته لعباده من كرم وبر وود وتيسير. ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير، الذي لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور^(١)".

وقيل في ذات السياق: "ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به فيه قولان: أحدهما: ما لا طاقة لنا به مما كلفه بنو إسرائيل. الثاني: ما لا طاقة لنا به من العذاب^(٢)".
ومن الألفاظ الشائعة في هذا المجال: ربنا - تؤاخذنا - نسينا - أخطأنا - تحمل - إصرا - قبلنا - تحملنا - لا طاقة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٣٤٦

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ١ / ٣٦٥